

مُقَدِّمَةٌ

فكرة « الشعب المختار » يمكن أن تؤخذ على أنها تكليف ... تشدّد النفوس وتُعلّي الهمم ... يتسامى بها " المختار " عن نقائص وعيوب البشر ... ويضرب لهم المثل والقُدوة ... كما فعل الأنبياء ومن تبعهم بإحسان ... بينما يأخذها البعض على أنها امتياز تجعله ينظر للآخر من علٍ ... فيُبطّل بها المساواة ويلغى حقوق الآخر ...

« أما مدن الشعوب التى يهبها الرب إلهكم لكم ميراثاً فلا تستبقوا فيها نسمة حية، بل دمروها عن بكرة أبيها ».

(سفر التثنية، الإصحاح العشرون: ١٦-١٨)

وفى الجزء الحالى، يناقش المؤلف تلك الفكرة وتأثيرها على السياسة والتاريخ ... وما أثارته من متناقضات وجدلية بين الآخذين بها ... فتارة تعتبر « الجماعة المختارة » أنها حلت محل أخرى؛ لأن الرب غضب على المختارة الأولى ... وهذا « الاستبدال » أو « الحلول » أو « الإلغاء » للقديم يعرضه لكل أنواع التهم والاستبعاد ...

وتارة تعتبر الجماعة الجديدة أن شرعيتها من تمام شرعية القديمة، فتؤيدها بكل السبل والوسائل ...

فمثلاً مارتن لوتر، الذى أنشأ المذهب البروتستانتي فى أوائل القرن السادس عشر ... أعاد للكتاب المقدس — بعهديه القديم والحديث — الأولوية فى المسيحية، فوق الكنيسة الكاثوليكية والبابا والتقاليد، وأعاد بالتالى الاعتبار لليهود وعمل بجدية لتحويلهم إلى المسيحية، فلما رفضوا، أصدر بيانه التالى فى كيفية معاملة اليهود:

« أولاً، إشعال النيران فى معابدهم أو مدارسهم ودفن ما لا يحترق وتغطيته بالتراب، بحيث لا يرى أحد مرة أخرى حجراً أو رماداً لهم ...

ثانياً، إننى أنصح بإزالة منازلهم أيضاً وتدميرها؛ لأنهم يتابعون فى داخلها نفس الأهداف التى يتابعونها فى معابدهم. وبدلاً من ذلك يمكن إسكانهم تحت سقف فى جرن، مثل الغجر. فإن هذا سوف يذكرهم بأنهم ليسوا سادة فى بلادنا، كما يتباهون، ولكنهم يعيشون فى المنفى والأسر، وأنهم باستمرار ينوحون ويحزنون علينا أمام الرب.

ثالثاً، أنصح بأن كتب صلواتهم، وكتاباتهم التلمودية، التى فيها وثنية وأكاذيب، ولعنات وكفر يتم تعليمه، تنتزع منهم.

رابعاً، أنصح بمنع أحبارهم من التعليم منذ الآن فصاعداً ومعاقبة من يخالف ذلك بالإعدام وقطع الأطراف ... » .

وبصفة عامة، كانت مصر وفرعون فى التتميط البروتستانتى هى المعادل لأى طغيان، كما كان بنو إسرائيل الاسم الذى يُطلق على أية مجموعة جديدة تقاوم الطغيان وتهرب منه...

فمصر هى روما فى عيون البروتستانت فى قرونهم الأولى، وهى انجلترا بالنسبة للثوار الأمريكيين، وبهذا أمكن القول إن جورج واشنطن هو موسى. وقبل ذلك كان أوليفر كرومويل الثائر الإنجليزى على الملك هو موسى وكان الملك الإنجليزى هو فرعون.

وتأيدت العنصرية بقصة نوح مع ابنه حام، الذى رأى عرى أبيه، فلعن نوح كنعان ابن حام (وليس حام) ودعا أن يكون كنعان بن حام عبداً لإخوته... فمئذ اكتشف أمريكا، وجد دعاة الرق والتفرقة العنصرية فى ذلك مرجعاً توراتياً إلهياً ... عندما نسبوا — بدون أساس مقبول — السود والزواج إلى حام ... ربما بنفس المنطق الذى لعن فيه نوح كنعان وليس حام.

عادل المعلم